مجلة جامعة شندي العدد الثالث (يونيو 2006م) ISSN:1858-571X

تاريخ وعمارة مسجد الخرطوم الكبير

صلاح عمر الصادق[1]

عرفت المساجد في السودان منذ عهد الخلفاء الراشدين، فنجد اول ذكر لمسجد في السودان قد جاء في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان، حيث أنه في 652 ميلادية حاصر عبد الله بن سعد بن أبي السرح مدينة دنقلا عاصمة دولة المقرة المسيحية، وأرغم ملك النوبة على توقيع إتفاقية تعرف بالبقط ، نجد أهم ماجاء فيها :

"وعليكم حفظ المسجد الذي إنتباه المسلمون بفناء مدينتكم لا تمنعوا منه مصلياً ، وعليكم كنسه وا إسراجه وتكريمه "[2]

وهكذا كان هذا أول مسجد بني في السودان ، تم تلاه مسجد دنقلا العجوز في 9 يونيو 1318م والذي تم تحويله إلى مسجد على يد الملك النوبي المسلم سيف الدين عبدالله بر شنبو[3]. كما جاء على حجر تأسيسه والذي لا زال يوجد في الطابق الثاني من المبنى[4].

موقع مسجد الخرطوم الكبير

مسجد الخرطوم الكبير (مسجد عباس سابقاً)، وعباس المقصود هنا هو الخديوي عباس حلمي، الذي تولى الحكم في 8 يناير 1892م [5] والإحداثيات الجغرافية حسب قراءة تحديد الموقع G.P.S ويمكن الرجوع إلى

[1] اختصاصي الآثار والمتاحف بالهيئة القومية للآثار والمتاحف السودانية .
[2] Hassan , Y, F the Arabs and the Sudan . Khartoum . University of Khartoum Press, 1973 P.24.
[3] مصطفى محمد مسعده المكتبة السودانية العربية . جامعة القاهرة الخرطوم ، 1972م.
[4] شاهد الكاتب حجر التأسيس على الجدار الغربي للمسجد عند زيارته للموقع عام 1999م.
[5] نعوم شقير _جغرافية وتاريخ السودان ، دار الثقافة بيروت الطبعة الثانية 1972م. ص.1152 – 1154.

موقعة ايضاً في خريطة مصلحة المساحة السودانية خط عرض شمال 36' 15° وخط طول شرق 32' 31° خريطة رقم ND.36.B الخرطوم مقياس 1:250.000 ويقع المسجد في وسط ميدان أبو جنزير وشرقه قباب الأتراك (مقابر الحكام الأتراك)، والميدان الذي يقع غرب المسجد يسمي الآن ميدان الأمم المتحدة (ميدان عباس سابقاً) المسجد جنوب القصر الجمهوري، وغرب شارع القصر (شارع فكتوريا سابقاً)، وفكتوريا هي ملكة إنجلترا في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، وموقع المسجد في وسط المدينة، حيث يقع قصر الحاكم شمالاً والسوق جنوباً ، والمنطقة السكنية غرباً، والمقابر شرقاً (لوحة رقم 1) كل هذا يؤكد أن مدينة الخرطوم التي اتخذت عاصمة في فترة التركية سنة 1830م ونشأت حسب تخطيط المدينة الإسلامية والذي يقع دائماً المسجد في الوسط[1]، فهو يعتبر المحرك لكل حياة المدينة، والقاسم المشترك الذي يحتل أهمية كبيرة في تخطيط المدن العربية القديمة والحديثة لكونه يشغل مركز المدينة، وحول استقطاب الحركة بها، ويمكن أن ندرك أن نفس تخطيط الخرطوم كمدينة إسلامية نجده في تخطيط إنشاء مدينة بغداد عندما انشأها الخليفة المنصور في سنة 762م وفق نظام دائرة قطرها 2638متر تقريباً . ونشير إلي أن المسجد كان يعتبر أعلى مبني في الخرطوم عند إنشائه، وهذا مبدأ أساسي في العمارة الإسلامية ألا يعلو أي مبنى عن مبنى المسجد ، وهي قاعدة لا زال يعمل بها حتى الآن في المدن الإسلامية. لذلك جعلت هناك حرم للمساجد . حيث تبعد المباني منها بمسافة مقدرة.

[1] عبدالعزيز الدوري "المؤسسات الحكومية" ر. ب سرجنت المدينة الاسلامية ترجمة أحمد محمد ثعلب اليونسكو 1983م ص 54.

مجلة جامعة شندي العدد الثالث (يونيو 2006م) ISSN:1858-571X

تاريخ مسجد الخرطوم الكبير:

بدأ بناء المسجد بعد معركة كرري بعامين حيث وضع حجر الاساس له في 17 سبتمبر 1900[1]، وتم افتتاحه عند زيارة الخديوي عباس باشا حلمى للسودان في 4 ديسمبر 1901، والمنطقة التي شيد فيها المسجد هي جزء من مقابر الخرطوم القديمة، وبني المسجد في الجزء الغربي من المقابر، ولا زالت الحفريات داخل المسجد تخرج عظام بشرية هي المقابر القديمة للخرطوم[2].

وتكونت لجنة في البداية لإدارة المسجد من مواطني الخرطوم القديمة يرأسها عمدة المنطقة الشرقية للخرطوم السابق المرحوم عثمان منصور[3] وكان من أعضائها المرحوم محمد القباني وقد استمرت هذه المجموعات من رجال البر والخير في رعاية الجامع ومقابلة احتياجاته، وتوجد الآن لجنة مسجد الخرطوم الكبير ولم تلحق بمبني المسجد الاساسي تغيرات فقد بقي كما بني منذ 1901م ويرجع ذلك لمتانة البناء وشكل البناء ومواد البناء وتقنية البناء كانت مكتملة وا ٍن أدخلت تعدلات وا ٍضافات علي الملحقات الخارجية للجامع مثل الحمامات والسور والذي أحدثت به تغيرات في نهاية القرن الماضي وهي بصورة عامة لم تؤثر علي خريطة الجامع .

التحليل المعماري للمسجد:

أولاً : شكل البناء Building Structure

شكل المسجد مشابه تماماً للمساجد في الدول الإسلامية حيث نجد أن شكل البناء مربع وهي خاصية للمساجد المبكرة في العراق وفارس وأيضاً مصر[4] فنجد

[1] نعزم شقير – جغرافية و تاريخ السودان، دار الثقافة بيروت الطبعة الثانية سنة 1972م ص. 1349
[2] محمد ابراهيم ابوسليم. تاريخ الخرطوم. دار الجبل بيروت الطبعة الثانية . 1979م. ص. 184.
[3] مقابلة شخصية مع ابنة المرحوم هاشم عثمان منصور سنة1984م.
[4] K.A.C. Creswell U. Early Muslim Architecture. Penguin, Book. London, 1958 P. 9

مجلة جامعة شندي العدد الثالث (يونيو 2006م) ISSN:1858-571X

أن عرض المسجد باتجاه الشرق حيث القبلة. وعرضه من الجنوب والشمال يساوي 45×45 متر وهناك ثلاثة أبواب للمسجد من الخشب مستطيلة تنتهي من أعلي بأقواس مسلوبة وهناك زخرفة الصدفة في نهاية القوس، ومجموعة من الشبابيك المستطيلة من الخشب بزخرفة السبحة يعلوها أربعة مناور مستطيلة مع منشور زجاجي دائري ويعلو المسجد مئذنتان إحداهما من الناحية الجنوبية الغربية وأخرى في الزاوية الشمالية الغربية، وهي تشبه مئذنتا السلطان المملوكي الملك ناصر حسن (748هـ) بالقلعة بالقاهرة[1] ولسور المسجد الخارجي أربعة أبواب، وتسع مساحة المسجد لعدد10 ألف مصلٍ ، وبه معهد لتأهيل الأئمة ، وحلقات لدراسة القرآن صباحاً ، وأضيف إليه حديثاً ساحة الإمام مالك لتدريس العلوم الشرعية في المساحة الخارجية الجنوبية للمسجد. هناك صور نادرة للمسجد سنة 1929م يظهر فيها المسجد واضحاً مع حرم من جوانبه هي مساحات خالية تبرز المسجد بشكل متفرد (لوحة رقم 2)، وقد أجريت إضافة مصلين خارج مبني المسجد الرئيسي في العقد الأخير من القرن الماضي كما أن الحمامات وأماكن الضوء في حالة تجديد دائم، حديثاً أقيم صهريجان للمياه، ومن المباني الحديثة مكتبة لبيع الكتب في الجزء الجنوبي من المسجد، أيضاً معرض الزي المحتشم في الجزء الشرقي . وكل هذه المباني تشكل عمارة داخلية على المسجد حيث أنها بنيت من مواد بناء مخالفة لمواد المسجد مما أظهر تنافراً معمارياً كما أنها استعملت واجهات خارجية عن البيئة المحيطة، إضافة إلى أنها يمكن أن تقام في أي مكان آخر.

[1] سعاد ماهر محمد . مساجد مصر و اولياؤها الصالحون ، الجزء الثالث . وزارة الاوقاف المصرية القاهرة 1976م ص 280- 281 لوحة 245

مجلة جامعة شندي العدد الثالث (يونيو 2006م) ISSN:1858-571X

ثانياً : مواد البناء Building Material.

استخدم في بناء المسجد الحجر الرملي النوبي (Stone Nubbian Sand)، والذي احضر من جبل اولياء وتم تقطيعه بواسطة عمال احضروا من مصر يساعدهم عمال سودانيون كما أن هناك طوب أحمر وآخر أسود محروق استخدم كحلية في البناء عند الواجهات.

وقد استخدم في بعض المناطق مادة الملاط كرابط للحجر والذي استعمل أيطًللسور، وا ٍن تم تجديد السور في نهاية العقد الأخير من القرن الماضي بواسطة فنيين سودانيين أما الحلي المعمارية كانت تقطع من الحجر النوبي الرملي ، وكان يقوم بذلك فنيون مصريون أتقنوا هذا العمل ونجد أن هنالك بعض مواد البناء استعملت وا ٍن كانت بصورة قليلة مثل الحديد حيث استعمل كحواجز في الشبابيك أما الخشب فقد استعمل في الأبواب والشبابيك والسقف أيضاً الذي تحمله أقواس تنتهي بأعمدة مربعة الشكل.

ثالثاً طريقة البناء Building Technique

أن طريقة البناء، بعد تقطيع الحجر إلى كتل منتظمة القطع على أشكال مستطيلة أو مربعة ، وبأحجام مختلفة حسب حاجة العمل ثم توضع هذه البلكات بعد حفر الأساس Foundation، ثم يبدأ نظام الصف Coursing (المداميك) وهو مايعرف بنظام الحجارة المربعة المصفوفة علي طريقة Ashlars وهي حجر مربع أو مستطيل منحوت بابعاد متساوية منتظمة توضع بنسب ثابته[1]، أما نظام ربط الطوب الأحمر والأسود (Brick bound) (المداميك) فاستخدام نظام الطوب المجانية Stretcher مما أعطى واجهة المسجد تبايناً متناسقاً .

[1] John Fleming -,etat, the Beginning Dictionary of Architecture Penguin Books . 1979 P.19

مجلة جامعة شندي العدد الثالث (يونيو 2006م) ISSN:1858-571X

رابعاً : الزخارف والحلي المعمارية

Decoration and Architectural Elements

أ/ الزخارف :

يذخر المسجد بالزخارف والحلي المعمارية فمن أهم الزخارف المستعملة هي استعمال الخط العربي كزخرفة وكدافع تعليمي يمثل ذلك الآيات القرآنية التي نحتت على الجسم الخارجي من المسجد ولمئذنته، وقد كتبت بالخط الديواني1 وهو خط عربي فني رشيق وسهل ومن أجمل الخطوط العربية، كما عملت أيضاً زخرفة التوريق، وهي إستخدام العناصر النباتية كزخرفة بأسلوب (الأرابسك) المحفور علي الحجر، ونجد ذلك في مئذنته وهي أحياناً الزخرفة الهندسية ذات الأشكال المجردة من دوائر أو مثلثات أو مربعات وهي تفصل بين الاحزمة الزخرفية المتنوعة.

ب/ الحلي المعمارية:

تتمثل الحلي المعمارية على الأشكال المعمارية في أعلى الافريز (الكورنيش) (Cornice)، وهي أشكال مستدقة من أعلى ومسطحة من أسفل وهي حلية إسلامية، أما قمة المئذنة فإنها تنتهي بحلية من الكرات الثلاث حديدية متدرجة في الصغر من أسفل إلي أعلى وهي تنتهي بهلال مقفول في قمة المئذنة. والمئذنة عملت كلها من الحجر الرملي النوبي وهي مكونة من ثلاث أبراج وكلها قد زخرفت بالنقش البارز وبالحلي المعمارية التي سادت كافة أجزائها من قاعدة المئذنة حتي قمتها وسيطر النحات على الحجر الرملي النوبي واستطاع أن يخلق منه أشكال بديعة من المقرنصات القريلات الحجرية للأبراج كما استعمل الأشكال المجردة وأيضاً الدوافع

مجلة جامعة شندي العدد الثالث (يونيو 2006م) ISSN:1858-571X

الزخرفية النباتية المحورة في زخرفته أما قمة المئذنة فقد قطعت على شكل كرة بيضاوية من قطعة واحدة من الحجر الرملي النوبي ويعلوها ثلاث كرات حديدية ثم هلال مقفول من الحديد مطلي بالفضة (انظر لوحة 3)

الخلاصة:

نستخلص في النهاية أن مسجد الخرطوم الكبير قد أنشأ في نهاية القرن التاسع (1898م) على نسق عمارة مساجد الدولة في تلك الفترة وهي تتميز بالمباني الضخمة والأسقف العالية والبناء من الحجر الرملي النوبي وهي عمارة موحدة في مصر والسودان ونلاحظ أن المسجد قد بني حسب تخطيط المدينة الإسلامية من حيث بناء المسجد في وسط المدينة، وعمل على شكل مر بع كبير.ويستوعب عشرة ألاف مصلٍ ونلاحظ دخول بعض العمارة الدخيلة علي المسجد وهي إضافات استخدمت أخيراً . وقد بني المسجد من الحجر الرملي النوبي المنتظم القطع على شكل بلكات Blocks كما استخدم كملاط الجير المخمر لربط الحجر الرملي مع استخدام الطوب الاحمر كحلية في الواجهات واستخدم الخشب في الأبواب والشبابيك والسقف إضافة إلى استخدام الحديد كحواجز في الشبابيك.

إن طريقة البناء هي النظم المعروفة في بناء بلكات الحجر المستطيلة والمربعة الشكل مع الملاط الخفيف كربط أما وضع الطوب الأحمر فهو نظام الطوبة الجانبية. يذخر المسجد بالزخارف والحلي المعمارية الإسلامية سواء في جسمه الخارجي أو الداخلي.

عليه فأن مسجد الخرطوم الكبير يعتبر من أميز المساجد في السودان في شكله ومواد وطريقة بناءه كما تميز بزخارف وحلي إسلامية وبقى صامداً لمدة مائة وخمسة عام.

مجلة جامعة شندي

العدد الثالث (يونيو 2006م) ISSN:1858-571X

لوحة رقم (1) مسجد الخرطوم الكبير

ويقع وسط المدينة بعمارة اسلامية

مجلة جامعة شندي العدد الثالث (يونيو 2006م) ISSN:1858-571X

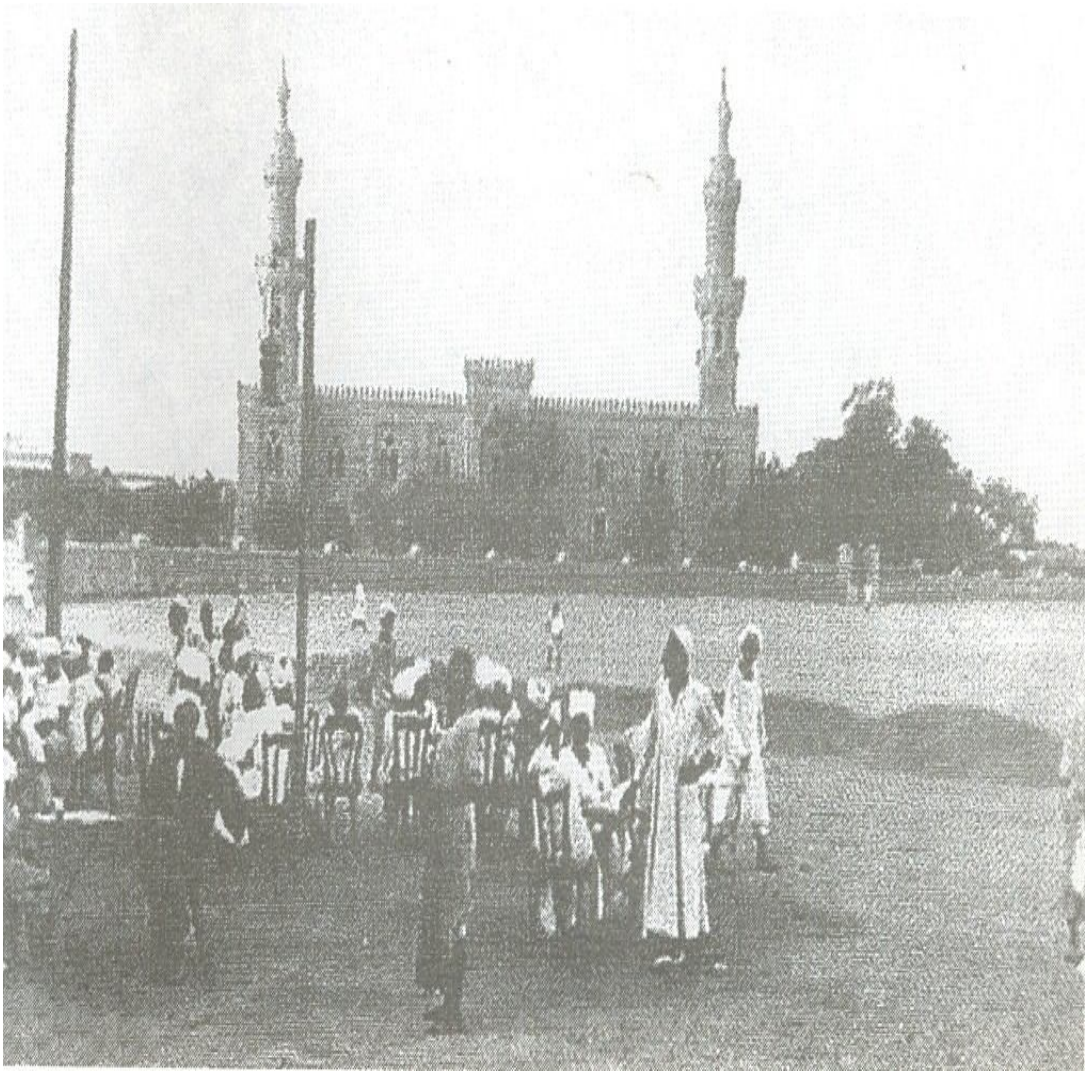

لوحة رقم (2)

مسجد الخرطوم الكبير سنة 1929م بحرمه الكبير

مجلة جامعة شندي العدد الثالث (يونيو 2006م) ISSN:1858-571X

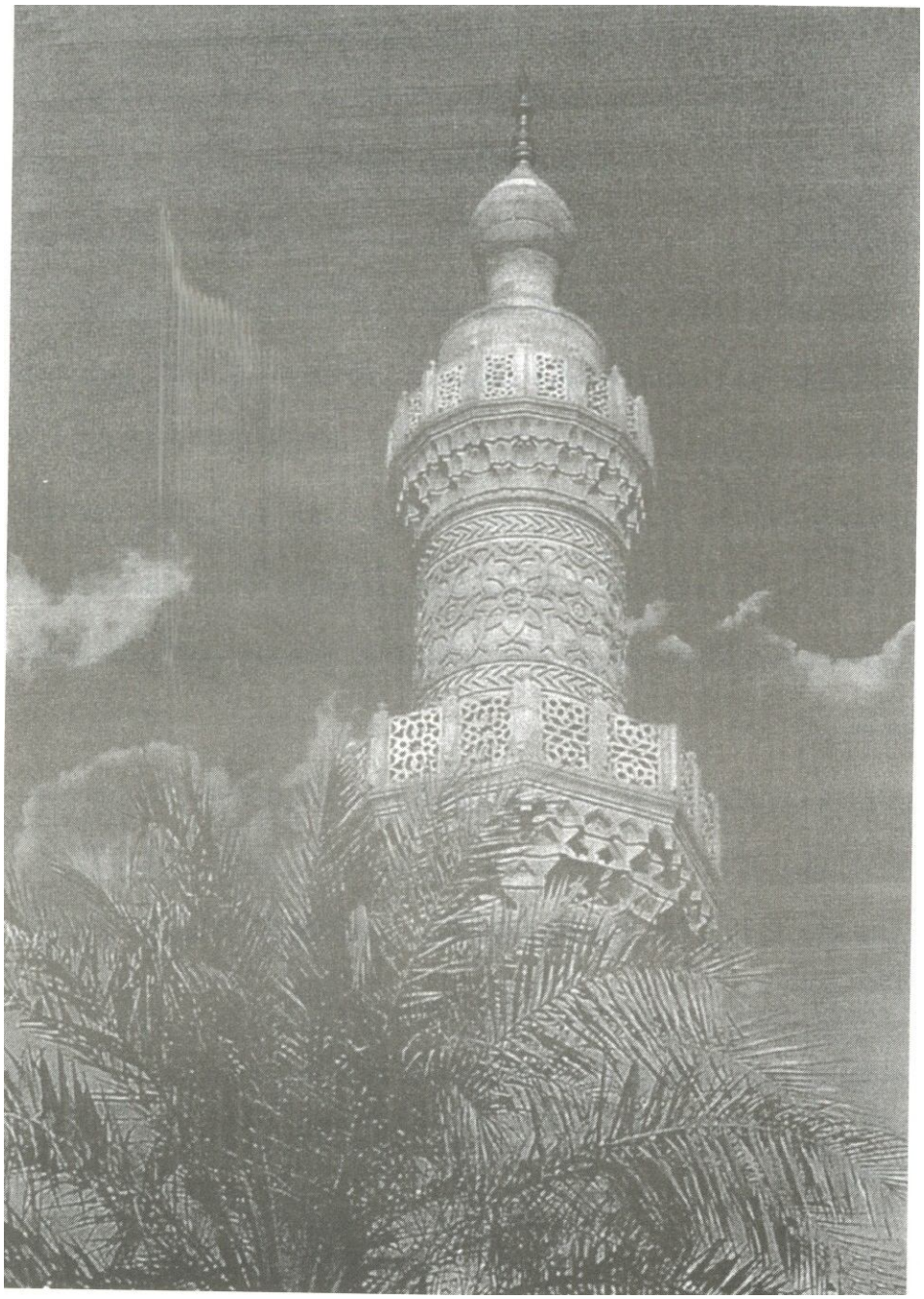

لوحة رقم (3) إحدى مأذن المسجد

و يلاحظ ثراء الزخرفة والحليات المعمارية الاسلامية

مجلة جامعة شندي العدد الثالث (يونيو 2006م) ISSN:1858-571X

المراجع :

1. سعاد ماهر محمد . مساجد مصر واولياؤها الصالحون، الجزء الثالث وزارة الاوقاف المصرية القاهرة 1976م.
2. عبد العزيز الدوري . المؤسسات الحكومية في ر.ب سر جنت المدينة الإسلامية. ترجمة أحمد محمد تعلب – اليونسكو 1983م
3. عفيفي البهنسي الخط العربي. اصوله، نهضته، انتشاره. دار الفكر دمشق 1945.
4. محمد إبراهيم ابو سليم. تاريخ الخرطوم دار الجيل، بيروت الطبعة الثانيه 1979م.
5. مصطفي محمد مسعده. المكتبة السودانية العربية. جامعة القاهرة الخرطوم 1972م.
6. نعوم شقير. جغرافية وتاريخ السودان دار الثقافة بيروت، الطبعة الثانية 1972م.
7. Hassan. Y.F The Arabs and the Sudan. U of Kpress Khartoum. 1973
8. Jon Fleming - , eal, The Beginning Dictionary of Architecture Penguin Books. 1979

K.A.C Creswell U. Early Muslim Architecture. Penguin. Books London.